الفلسفة الظاهراتية

الظاهراتية – الفينومينولوجيا: تتكون كلمة فينومينولوجيا (بالإنجليزية:Phenomenology) من مقطعين Phenomena وتعني الظاهرة، وLogy وتعني الدراسة العلمية لمجال ما، وبذلك يكون معنى الكلمة العلم الذي يدرس الظواهر. والحقيقة أن كل العلوم تدرس ظواهر، فهل معنى ذلك أن كل العلوم فينومينولوجيا؟ لا بالطبع، ذلك لأن المقصود من الظواهر في مصطلح الفينومينولوجيا ليس ظواهر العالم الخارجي، أي الظواهر الطبيعية الفيزيائية، أنما الفينومينولوجيا تعنى بما يصاحب عملية المعرفة من حالات ذهنية أو وظائف عضوية ترجع إلى الجهاز العصبي، وبكيفية إدراك الوعي للموضوع ووصوله إلى معرفة موضوعية ويقينية حوله؛ أي بالاستعدادات المعرفية الموجودة لدى الذات الإنسانية والتي تمكنها من تأسيس معرفة يقينية، وهذه الاستعدادات ليست سيكولوجية، بل مرتبطة بالوعي الخالص قبل أن يتصل بأي خبرة تجريبية.

أدموند هوسرل: حياته ومؤلفاته

فيلسوف الماني ولد في ٨ نيسان ١٨٥٩ في بورافيا وتتلمذ على يد فرانتز برنتانو ، ومؤسس علم الظواهر، وبدأ بنقد النزعة السيكولوجية التي كانت تتصدر التيار الأول. وشرع بتأسيس معقولية جديدة لا تدين بشيء للعلوم الدقيقة بدون أن تكون من جراء ذلك اقل دقة وصرامة. وسعى إلى تأسيس الفلسفة كعلم صارم بالاستناد إلى الوصف الدقيق لتلك الظاهرات التي ترينا نفسها من تلقاء نفسها والتي تعطي لنا حدسياً في البداهة المباشرة. وتوفي في٢٧ نيسان ١٩٣٨.

مؤلفاته:

فلسفة علم الحساب (١٨٩١)، وبحوث منطقية (١٩٠٠-١٩٠١)، وأزمة العلوم الأوروبيّة والظاهريّات المتعالية (١٩٣٦) ولفلسفة علما دقيقا (١٩١١)، وأفكار: مقدمة عامة لفلسفة ظاهرية خالصة (١٩١٣)، والمنطق الصوري والمتعالي (١٩٢٩)، وتأملات ديكارتية (١٩٣٢) ، والتجربة والحكم (١٩٣٩).

نقد النزعة الأسمية

تيار في فلسفة العصور الوسطى يعتبر المفاهيم الكلية مجرد أسماء للأشياء الجزئية. وأصحاب المذهب الأسمى يؤكدون في مقابل واقعية العصور الوسطى أن الأشياء الجزئية وحدها، بخصائصها الجزئية، هي التي توجد حقا. أما المفاهيم العامة التي تخلقها أفكارنا من هذه الأشياء لا تعكس حتى خواصها وصفاتها.

ذهب هوسرل إلى أن لوك قد خلط بين عملية التمثيل والموضوع المُمَثل، بحيث أن عملية التمثيل لدى لوك تكون حسية وانطباعية مثل الموضوع الحسي المنطبع بالضبط. ويؤكد هوسرل، على العكس، أن عملية الإدراك الحسي لا يلزم عنها ضرورة أن يكون الموضوع مدركاً حسياً. وهنا ينقده هوسرل ويقول إن حضور الموضوع في إدراك حسي لا يجعل حقيقته حسية أو تجريبية، لأن الكلي والمقولي والنوعي حاضر في الإدراك الحسي الجزئي لكنه لا ينتمي إلى التجربة بل هو ذو طبيعة قبلية. ويدلل هوسرل على صحة نقده بقوله: "نتكلم أحياناً عن اللون والخشونة والشكل قاصدين صفات موضوعية (كلية)، وأحياناً أخرى قاصدين الإحساسات". لم يميز لوك بين هذين المعنيين للون: اللون كإحساس واللون كصفة موضوعية كلية، وذلك لأنه ينظر إلى الصفات الكلية على أنها تجريد في الذهن فقط، أي على أنها كيانات سيكولوجية أو تعبيرات لغوية وليس لها وجود مستقل، أي وجود قبلي بالمعنى الذي يقصده هوسرل، وهو في حقيقته القبلي بنفس المعنى الذى يقصده كانط. ويطلق هوسرل على نظرية لوك وهيوم في المجردات "إحالة سيكولوجية للكليات"، ويقصد بذلك أن لوك نظر إلى الكليات على أنها كيانات ذهنية داخل العقل وليس لها حقيقة مستقلة عن التجربة. إذ يذهب لوك إلى أن المجردات موجودة بفضل قدرة العقل على التجريد، أي التعميم من

الجزئيات وإدراك المشترك بينها وتسميته. الكليات وفقاً للوك وهيوم هي مجرد أسماء أو تعبيرات لغوية، وبذلك عرف مذهبيهما بالإسمي (بالإنجليزية:Nominalism). أما هوسرل فيذهب إلى أن للكليات وجوداً مستقلاً من نوع خاص، وحجته في ذلك أنها موضوعات للإشارة والدلالة، أي موضوعات يقصد إليها الوعي كما يقصد إلى الجزئيات تماماً.

ويطلق هوسرل على حضور الحسي في الوعي مصطلح "مضمون الوعي" Noema، وهو يستخدمه ليشير إلى أن الحسي حاضر في الوعي لا في الحواس وحسب، ذلك لأن أعضاء الحس لا تفعل شيئاً إلا استقبال انطباعات حسية، أما الموضوع الحسي باعتباره كلاً مترابطاً فهو حاضر للوعي فقط وحضوره هذا نتيجة لأفعال قصدية من قبل الوعي، ويطلق هوسرل على هذه الأفعال مصطلح "فعل الوعي" Noesis.

كذلك فقد وجه هوسرل سهام نقده الى النزعتين الطبيعة ، والنفسية اللتان هيمنتا على طريقة توجيه الخطاب الفلسفي الغربي منذ عصر الحداثة الاوربية، فالنزعة الطبيعية ترى أن " القوانين المنطقية ما هي الا تعميمات تجريبية واستقرائية مماثلة لقوانين الطبيعة"، على حين ان المذهب النفسي يرى ان القوانين المنطقية عبارة عن مفاهيم ذاتية صادرة عن ظواهر نفسية وان هذه الظواهر هي التي تشكل مضمون الحقيقة.

ويرى هوسرل في معرض نقده لتلك النزعتين أن القوانين المنطقية ليست كذلك إذ " أن المسألة في المنطق تدور على قوانين ضرورية وليست عرضية، ليس على النحو الذي نفكر فيه ، بل على النحو الذي ينبغي إن نفكر فيه ،[ولذلك] فعلى قواعد المنطق اذن ان تشتق لامن الاستعمال العرضي ، بل من الاستعمال الضروري للعقل الذي نعثر عليه من دون أي سيكولوجية "، وان الضرورة تعني ان للحقيقة مفهوم موضوعي لا يمكن اشتقاقه من تلك النزعتين ، إنما من التجربة الحية التي تحدث في عالم الحياة (Life-world) ، تلك التجربة التي تقصد الأشياء ذاتها ، على نحو يتسم بالشفافية ، وبمعزل عن الافكار المسبقة.

التحليل القصدي والمعنى

إن ظهور الموضوعات في الوعي ليس تلقياً سلبياً لها في من الخارج، ذلك لأن الوعي ليس وعاءً يتم فيه جمع ما تتحصل عليه الحواس. فحضور الموضوع في الوعي يكون نتيجة قصد الوعي إليه. وليست القصدية(بالإنجليزية:Intentionality) هي أن يقصد الوعي إلى الأشياء الخارجية بهدف إدراكها، بل القصدية تكون نحو الموضوع الحال في الوعي بهدف معرفته وإصدار الحكم عليه. ومعنى ذلك أن الحكم ليس وضعاً لشئ خارجي تحت تصور أو مقولة، بل هو توجه قصدي من قبل الوعي نحو الموضوع الحال فيه منذ البداية. ونمط القصدية الذي يتوجه به الوعي نحو مضمونه هو الذي يحدد أشكال الحكم المختلفة؛ وبذلك يكون الحكم كلياً إذا قصد الوعي نحو الكلي في مضمونه، ويكون جزئياً إذا قصد الوعي نحو الجزئي؛ ويكون الحكم حول الكم إذا كان كم الظاهرة هو قصد الوعي، ويكون حول الكيف إذا كان قصد الوعي نحو كيف الظاهرة، ويكون شرطياً إذا كان قصد الوعي نحو علاقة ما بين الظواهر لأجل الوصول للمعرفة الخالصة. لذلك يعرَّف هوسرل الفينومينولوجيا على أنها المنهج الدارس لظهور الماهيات في الوعي، ويقصد بالماهيات الحقائق الموضوعية للأشياء طالما كانت متميزة عن طابعها الحسي. كان هوسرل يعترف بوجود الحقائق الموضوعية، والمشكلة الأساسية بالنسبة له كانت في تفسير كيفية الوعي بهذه الحقائق، وكانت الكيفية متمثلة في دراسة ظهورها في الوعي باعتبارها قصديات للوعي، أي مقاصد ماهوية يتوجه إليها.

ولأجل تحقيق ذلك يرى هوسرل ان هناك ثلاث خطوات ينبغي القيام بها ، لأجل الوصول إلى المعرفة الخالصة ، إي ماهية تلك المعرفة وهي كالآتي :

١- التعليق (èpochè)

ويعني هوسرل بالتعليق وضع العالم بين قوسين ، وذلك بالابتداء " بوضع كل معرفة موضوع سؤال " ، والتوقف عن استعمال اعتقاداتنا المسبقة ، والافتراضات العلمية والفلسفية ، التي تجعل فعل المعرفة ،ينظر

إليه من منظور متحيز، أو مسبق . وتهدف تلك الخطوة إلى التخلص من الاتجاهات الوضعية أو العلموية التي توثر في اكتساب المعرفة الخالصة ويرى هوسرل أن " الانا بوصفه شخصاً ، شيئاً في العالم، والمعيش بوصفة معيشاً لهذا الشخص ، منساق في الزمان الموضوعي" ، ذلك الزمان الذي لا يمكن تأسيس المعرفة به . وباختصار أن التعليق يعني الإفلات والتخلص ، من كل منظور يتعلق بالعالم الطبيعي .

٢- الرد الظاهراتي (Phenomenologic Reduction)

يعنى الرد الظاهراتي باختزال الظاهرة ، من خلال تخليصها من الوقائع المادية وكل ما يتصل بالعالم الطبيعي ،وذلك لأجل تحويل العالم من مجرد موضوع حسي إلى مجرد ظاهرة في الوعي ، وان ذلك لا يمكن أن يحصل ، أي الحصول على موضوع مجرد من " كل مفارقة إلا برد قد جعلنا له بعد اسم (الرد الظاهراتي) [ومن خلاله] توضع الأنا والعالم ومعيش الأنا بما هو كذلك موضع سؤال [واحصل] على مجرد التأمل الحدسي في ما هو معطى ضمن تعقل المعيش المقصود وفي أنا " ، أي في محتوى وعي الأنا .

٣- الرد الماهوي (Eidetic Reduction)

يسعى الرد الماهوي إلى تخليص الوعي من الظواهر النفسية كيما يتم إدراك الظاهرة في الوعي إدراكا خالصاً ، إذ ليست الظواهر النفسية "الموجودة في التصور وفي التموضع النفسيين هي فعلاً معطاة باطلاق ، انما فقط الظاهرة المحضة"[٣٠] ، ولذلك فأن الرد الماهوي "يفتح للمتفلسف نوع جديد من التجربة والتفكير ويكون فيه فوق وجوده الطبيعي ، وفوق العالم الطبيعي دون ان يفقد شيئاً من معناه وحقائقه الموضوعية" ، ومن خلال الوعي القصدي الذي تجسده الانا المتعالية تلك الأنا التي تكشف عن ذاتها من خلال الشعور القصدي ، ومن خلال ذاتها التي تتكشف بها معاني الوجود ، والحقيقة ، وان تلك المعاني هي الماهيات الحية والتي هي "كل معيش نفسي يناسب على سبيل الرد الظاهراتي معيشاً محضاً يكشف ماهيته المحايثه (من حيث تؤخذ مفردة) بوصفها معطاً مطلقاً " ، ومن خلال تنوع المنظورات التي تعيش تلك التجربة.